■ الباب الثالث عشر

(منستر)

مالكوم إكس

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X

تركت العمل في مصنع فورد للعربات حينما أصبح واضحاً لي أن مستر محمد في حاجة إلى وعاظ ينشئون معابد أخرى بين الاثنين والعشرين مليوناً من الأخوة السود مغسولي الدماغ الغافلين في مدن أمريكا الشمالية المختلفة .

وصلت إلى قراري ذلك بسرعة إذ أنني بطبعي رجل عملي وقد ساعدتني طبيعة تكويني أن أتخذ هذا القرار بسرعة مقارنة بالآخرين في أمة الإسلام عندما يصلون تلك المرحلة في تطور إيمانهم . كل (منستر) في أمة الإسلام يصل إلى تلك المرحلة بطريقته عندما يخلو إلى نفسه وفي الوقت الذي يلائمه والكل يؤمن في قرارة نفسه أن كل حياته السابقة إنما كانت تحضيراً للمرحلة التي يصبح فيها من حواري مستر محمد .

كل ما يحدث لنا إنما هو قدر مكتوب . هكذا علمنا الإسلام .

دعاني مستر محمد لكي أزوره في بيته في شيكاجو كلما سنحت لي الفرصة وهناك كان يعلمني لمدة شهور . الآن وتحت إرشاد مستر محمد درست واستوعبت تعاليمه كما لم أستوعبها من قبل حتى وأنا في السجن . غرقت في دراسة العادات والطقوس ، وفيما علمنا أنه الطبيعة الحقة للرجل والمرأة ، في الإجراءات التنظيمية والإدارية وفي المعنى الحقيقي والخفي في القرآن والإنجيل .

وعندما يحل وقت الاضطجاع كل يوم كنت أذهب إلى سريري وأنا أكثر رهبة. من سوى الله يمكن أن يضع

سره في أضعف خلقه ويهب كل تلك الحكمة لشخص ضئيل كالحمل، متواضع، تخرج من الصف الرابع ومن طواحين الأخشاب وحقول القطن في جورجيا . ذلك التشبيه « ضئيل كالحمل » ، أخذته من النبوءة التي في كتاب سفر الرؤيا عن حمل رمزي يحمل سيفاً ذا حدين في فمه . والسيف ذو الحدين كان تعاليم محمد التي تقطع طالعة ونازلة لتحرر عقل الرجل الأسود من الرجل الأبيض . كان توقيري لمستر محمد يزداد كل يوم بل كان أكثر من مجرد توقير . كان يكاد يكون عبادة وخوفاً ، ليس مثلما يخاف الإنسان من رجل يحمل سلاحاً ولكنه خوف كالخوف من رجل وكأنما ذلك الرجل يملك الشمس بيديه .

سمح لي مستر محمد بعد أن تأكد من مقدرتي أن أذهب إلى بوسطن . هنالك وجدت الأخ لويد اكس الذي يقيم هنالك وقد دعا أناساً يرغبون في معرفة الإسلام كي يستمعوا إليَّ في بهو منزله . أسجل هنا ما بدأت أقوله لهم في بوسطن وفي أماكن أخرى بعد ذلك على قدر ما تسعفني الذاكرة . كنت أتبع نسقاً متدرجاً طورته في تلك الأيام لمخاطبة الجمهور وكنت دائماً أحب أن أبدأ باستعارة مفضلة في وصف مستر محمد .

« أعطى الله لمستر محمد الحقيقة القاطعة وهي كسيف ذي حدين تؤلم كثيراً ولكن ذلك الألم سيشفيك إذا تحملته وينقذك من موت محقق ».

لم أكن أضيع وقتاً قبل أن أحدثهم عن الرجل الأبيض الشرير . « أعلم أنك تجهلون بشاعة وضخامة جريمة من يسمى بالمسيحي الأبيض ... ليست هناك جريمة مثل تلك الجريمة . لقد أنزل الله النيران غضباً على من اقترفوا جرائم أقل من تلك . مائة مليون من قومنا السود . أجدادك وأجدادي . قتلهم هذا الرجل الأبيض . كي يصل منا خمسة عشرة مليون عبد إلى أمريكا تم هلاك مائة مليون في الطريق . ليتني أستطيع أن أريكم قاع البحر في تلك الأيام وهو يموج بأجساد ودماء وعظام السود التي ركلتها الأحذية وحطمتها الهروات . والنساء السود الحمَّل يقذف بهن في عرض البحر إذا مرضن . يرمى بهن إلى الأقراش التي تعلمت أن متابعة سفن العبيد فيها غذاء مضمون .

« على ظهر تلك السفن بدأ الرجل الأبيض اغتصاب نساء العنصر الزنجي . لم يكن لديه الصبر حتى يصل إلى الشاطئ . ولم يشهد الجنس البشري عربدة وشبقاً وإجراماً أكثر من ذلك ..... ».

الحديث عن الرق بتلك الطريقة كان دائماً يثير الزنوج وهم يسمعون فظائعه لأول مرة . قد تستغرب ، أيها القارئ ، عندما تعلم الدرجة التي خدع بها الرجل الأبيض الزنوج حتى أن بعضهم يحمل أفكاراً رومانسية عن أيام الرق . وبعد أن أثير فيهم

النخوة بتلك الطريقة أحول الموضوع للحديث عن وضعهم الحالي .

« أود منكم بعد أن تتركوا هذه الغرفة أن تنظروا حولكم إلى الرجل الأبيض الشيطان وسترون معنى كلامي . نعم هو الشيطان ، فقط عليكم أن تراقبوه لتتأكدوا ، راقبوه في الأماكن التي يمنعكم منها . راقبوه وهو يتيه فخراً بنفسه ، في رفضه لكم ، في صلفه وهو يستمرئ استعبادي واستعبادك ».

« في كل مرة ترى فيها رجلاً أبيض فكر في الشيطان الذي أمامك . تذكر أنه بنى إمبراطوريته على دم وعرق وظهور أجدادك حتى أصبحت امريكا أغنى دولة في العالم وقد قادها الطمع والشر لأن تصبح مكروهة في كل العالم. »

مع كل اجتماع كان عدد الحضور يزيد ويعود نفس الأشخاص مصطحبين معهم أصدقاءهم. لم يكن أي منهم قد سمع أو رأى القناع يزال من وجه الرجل الأبيض قبل ذلك . وكنت بعد كل محاضرة في منزل الأخ لويد إكس أسأل الحاضرين : « ليقف منكم من يصدق ما سمعه الآن. » ولا أذكر أن أياً من المستمعين لم يقف على رجليه . كذلك في كل مساء أحد كنت أسألهم بعد المحاضرة : « من منكم يود اتباع صاحب الشرف إلايْجا محمد ؟ » فكان البعض يقف والبعض يتردد .

بعد ثلاثة أشهر من المحاضرات استطعنا تجنيد عدد كاف لنفتح به معبداً . ومازلت أذكر سرورنا حينما استأجرنا بعض المقاعد ولم أتمالك نفسي من الفرحة عندما رفعت تقريراً لمستر محمد به عنوان معبد جديد . عندما صار لنا معبد صغير بدأت أختي اللا تحضر لتسمعني أتكلم . كانت تجلس وتراقبني في دهشة غير مصدقة من المتكلم . لم تتحرك إللا من مكانها حتى عندما سألت الحضور عمن منهم يصدق ما قلته في حديثي لهم إلا أنها كانت ترمي شيئاً في صندوق التبرعات . لكنني لم أهتم بذلك فأنا لم أفكر حتى في إدخالها الدعوة لعلمي بعنادها ورأيها في كل منظمة جديدة . لم أكن أتوقع أن يستطيع أحد ، سوى الله ، أن يقنعها .

كنت أنهي كل اجتماع بالدعاء الذي علمني مستر محمد :﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ آمين « أشهد ألا إله إلا أنت وأن إلايْجا محمد هو خادمك» نعم صرت أؤمن بأن الله أرسله لينقذ قومي.

كنت أرفع يدي مؤذناً لهم بالانصراف وأقول : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك . أطلب السلام ولا تكن البادئ بالعدوان وإذا حدث واعتدى عليك أحد فنحن لا نسألك أن تدير له خدك الآخر . فليبارك الله فيكم وينصركم في كل ما تفعلون ».

لم أكن قد قابلت شورتي منذ ليلة خروجي من السجن عندما قابلته في منزل إللا وأنا في الطريق إلى ديترويت كما أنني لم أتمش في شوارع روكسبري في سبع السنوات السابقة وبما أنني كنت في بوسطن ، قررت أن أذهب وأزور شورتي . قابلت شورتي ووجدته يبدو متردداً من ناحيتي فهو قد سمع أنني في البلدة أقوم ببعض « الحركات الدينية » ولم يدر إن كنت جاداً في ذلك أم أنني مجرد واحد من الوعاظ الدجالين الذين يحتالون على النساء العجائز حتى يغمرن الفتى الواعظ الوسيم بالهدايا والمال مما يمكنه من أن يتأنق في الملبس ويقود عربة رائعة . بسرعة أقنعت شورتي بجديتي ولكنني تبسطت معه في الحديث وفاءً لذكرى الأيام الخوالي . ضحكنا حتى أدمعت أعيننا ونحن نتذكر ردة فعله عندما سمع القاضي يعلن :

« التهمة الأولى ، عشر سنوات ... التهمة الثانية ، عشر سنوات » تحدثنا عن كيف أن وجود الفتيات البيضاوات معنا رفع عقوبتنا إلى عشر سنوات بينما وجدنا في السجن من هم أكثر منا جُرماً لكن عقوبتهم أقل .

كانت ما زالت لشورتي فرقة موسيقية صغيرة وحاله على ما يرام وكان فخوراً بدراسته الموسيقى في السجن . شعرت من كلامه إنه لم يكن يريدني أن أتحدث كثيراً عن الإسلام ويبدو أنه سمع وهو في السجن إشاعات ضارة عن ديننا . غيّر موضوع الحديث بنكته إذ قال : إنه لم يأخذ كفايته من شرائح الخنزير والنساء البيض . لا أدري إن فعل ذلك أم لا ولكني أعرف أنه متزوج حالياً من امرأة بيضاء وأنه أصبح سميناً كالحلوف من أكل لحم الخنزير .

قابلت أيضاً جون هيوز صاحب كازينو القمار وبعض الآخرين الذين كنت أعرفهم ومازالوا يقيمون في روكسبري . جميعهم أزعجتهم الأخبار التي سمعوها عني ولكني كنت أهدئ من روعهم وأخاطبهم بطريقتي القديمة « ماذا تعرف ، يادادي ؟» وتمكنا بذلك من تجاذب بعض الحديث . لم أذكر الإسلام لأغلبهم لعلمي بأن أدمغتهم مغسولة جداً إذ أنني كنت مثلهم في السابق .

خدمت فترة قصيرة كمنستر للمعبد رقم أحد عشر لأنني بعد أن نظمته سلمته لمنستر يولسيس اكس ونقلني إلايجا محمد إلى فلادلفيا . في تلك المدينة ، مدينة الحب الأخوي كما يسمونها ، أستجاب الأخوة السود لدعوة الايجا محمد وقبلوا حقيقة الرجل الأبيض بسرعة أكبر من أهل مدينة بوسطن وتم إنشاء المعبد رقم اثني عشر في نهاية شهر مايو أي في أقل من ثلاثة أشهر .

قادني نجاحي في بوسطن وفلادلفيا إلى أن أصبح بعد شهر من إنشاء معبد فلادلفيا منستر للمعبد رقم سبعة في مدينة نيويورك ذات الأهمية الحيوية .

لن أستطيع أن أصف لكم مقدار شعوري وأنا أدخل نيويورك هذه المرة . إذا

كان لتعاليم مستر محمد أن تنقذ السود في أمريكا فإن الإسلام ينبغي أن ينتشر وينتشر بسرعة وليست هنالك مدينة في أمريكا بها مجال للانتشار مثل نيويورك التي كان بها أكثر من مليون أسود في خمس مناطق كبيرة .

لم أر آرشي الهندي الغربي لأكثر من تسع سنوات مع أني كنت يوماً أذرع الشوارع متوقعاً أن يحاول أحد منا قتل الآخر في أية لحظة .

« رد ! يا صديقي ... رد ، لا يمكن أنك أمامي. »

من الطبيعي أن شكلي اختلف خاصة أنني لم أعد أكوي شعري بمحلول القلي مثلهم بل أصبحت أجعله مجعداً على طبيعته وأقصه قصيراً. « اقترب يا صاح – ائتني بكأس يا ساقي. ماذا تقول ؟! تركت الخمر . لا أصدق ، دعنا من الهزل ».

سررت بلقاء وجوه أعرفها وكنت أراها كثيراً وبإمكانك أيها القارئ ، أن تتخيل . لكنني كنت أساساً أبحث عن شخصين : آرشي الهندي الغربي وسامي القواد . وصلتني أول صدمة مزعجة عن سامي بعد فترة وجيزة . أخبروني أنه ترك القوادة وصار من كبار رجال المراهنات وكانت أموره تسير على ما يرام . أنه تزوج حتى ، ولكنه وجد مقتولاً في سريره بعد حفل زواجه بزمن قصير ويقال أنهم عثروا على مبلغ خمسة وعشرين ألف دولار في جيبه . (لا يستطيع الكثيرون تصور المبالغ التي يتعامل فيها حتى صغار المجرمين . أذكر مثلاً في مارس ١٩٦٤ أن وجد مبلغ ٧٦٠٫٠٠٠ دولار في شقة أحد أصحاب محلات المراهنات الصغيرة عند موته في شيكاجو موضوعة في أكياس وحقائب ... كلها أخذت من الزنوج ... ورغم ذلك يوجد من يتساءل عن سبب فقرنا !) .

بعد قصة سامي التي تدعو للاشمئزاز ، صرت أنتقل من حانة إلى أخرى وأسأل معارفي القدماء عن آرشي الهندي الغربي . لم يعرف أحد إن كان حياً أو ميتاً . سمعت روايات كثيرة عن نهاية كثير من الزعران . رصاص ، مدى ، سجن ، مخدرات ، مرض ، جنون ، عرق . وكلها في نفس هذا التسلسل . كل من بقي حياً من أولئك الضباع والسباع كان في حالة يرثى لها . عرفوا كل جوانب الحياة ومع كل ذلك ظلوا يعمهون في الجهل والفقر . قست عليهم الحياة وخدعهم زيفها . رأيت خمسة وعشرين من هؤلاء كنت أعرفهم حق المعرفة وها هم الآن في مدى تسع سنوات تحولوا إلى حطام يلهثون وراء الفتات ويلتقطون الفضلات في سعيهم لسداد قيمة إيجار الشقة وما يكفي الأود . بعضهم كان يعمل في وسط البلد كسعاة وعمال نظافة وما شابه ذلك . شكرت الله كثيراً على أنني أصبحت مسلماً ونجوت من ذلك المصير .

هنالك مثلاً كاديلاك دريك . كان قواداً بديناً مرحاً متأنقاً يدخن السيغار وكان من الزوار المنتظمين في الأمسيات في جنة سمول حيث كنت أعمل نادلاً . علمت أنه أصبح مدمناً للهيروين وحينما رأيته في الشارع كان يجر قدميه في اتجاهي وملابسه متسخة . كان أقذر من رأيت في حياتي . تفاديت مقابلته لأن كليْنا كان سيحرج إذا تعرف عليَّ أنا الصبي الذي كان يمنحه دولاراً كبقشيش .

انتشر في هارلم خبر بحثي عن آرشي وفي هارلم تنتشر مثل تلك الأخبار بسرعة أكثر من البرق . في أحد الأيام بعد أن انتهيت من الوعظ في المعبد رقم سبعة تقدم إلى أحد قدامى الزعران الذي صار قماماً وكنت قد منحته بضع دولارات ، وأخبرني أن آرشي الهندي مريض ويسكن في غرفة مؤجرة بمنطقة البرونكس .

أخذت عربة أجرة إلى ذلك العنوان وعندما وصلت قرعت جرس الباب ففتح آرشي الهندي الغربي الباب . وقف آرشي عند الباب يحملق فيَّ وهو يرتدي بجامته المكرفسة وقدماه حافيتان .

هل رأيت إنساناً تحول إلى مجرد شبح من شخصه القديم ؟ تلك كانت حاله . احتاج آرشي إلى بضع ثواني قبل أن يتذكرني ثم هتف بصوت أجش « رد ، كم أنا سعيد برؤيتك! » .

حييته بحرارة حتى كدت أحتضنه وقد كان مريضاً وضعيفاً فساعدته على الجلوس في طرف سريره . جلست على المقعد الوحيد في الغرفة وأخبرته أنه أنقذ حياتي باضطراري لترك هارلم لأني وجدت الإسلام بعد ذلك . أجاب بأنه كان دائماً يستلطفني وأنه لم يكن حقيقة يريد قتلي . أخبرته أن جسدي كثيرا ما يقشعر حينما أتذكر أننا كدنا أن نقتل بعضنا البعض ثم ذكرت له أنني وبكل إخلاص كنت أعتقد أن الرقم الذي اخترته فاز وأنني أستحق ما دفعه لي. أجاب بأنه شخصياً يسأل نفسه أحياناً فلربما كان مخطئاً خاصة وأنني كنت على استعداد للموت من أجل موقفي . بعد ذلك اتفقنا أن الموضوع لا يستحق مجرد الذكر وظل آرشي يؤكد بين الحين والآخر سروره لرؤيتي .

ذكرت له بعضاً من تعاليم مستر محمد وكيف اكتشفت أنا أننا كلنا ضحايا هذا المجتمع الأبيض كما أخبرته أنني تذكرته في السجن وفكرت في مقدرته العقلية وذاكرته التي تحتفظ بمئات الأرقام كل يوم وقلت أن مثل تلك العقلية كانت ستجعل من صاحبها عالما للرياضيات والعلوم في أي بلد آخر . «رد : يجب علينا أن نفكر في مثل هذه الأشياء» ذلك كان رده .

لم يكن بمقدور أي منا أن يقول أنه ما زال هنالك متسع . كان لدي شعور أن نهايته قريت وقد هزني كثيراً أن أراه على تلك الحالة وأتذكر ما كانت عليه حاله في

السابق . هزني ذلك لدرجة أنني لم أطق البقاء معه أطول من ذلك . لم تكن معي نقود كافية ولم يكن يريد القليل الذي قدمته له ولكني أصررت عليه فقبلها مني .

كثيراً ما أذكر نفسي أن المعبد رقم سبعة في مدينة نيويورك كان أساساً واجهة متجر صغير وأن كل عدد المسلمين السود في نيويورك لم يكن ليملأ حافلة واحدة . حتى بين أهلنا السود في هارلم كان عدد من سمع بمجرد كلمة « مسلم » لا يزيد عن واحد في الألف أما بالنسبة للبيض وإذا استثنينا القلة في بعض مراكز الشرطة ، لا أعتقد أنه كان هنالك أكثر من خمسمائة شخص في أمريكا كلها قد سمعوا عنا .

بدأت في تدريس تعاليم مستر محمد لأعضاء المعبد في نيويورك وأصدقائهم الذين يحضرون معهم . ومع نهاية كل اجتماع كنت أصاب بالإحباط إذ كيف أننا هنا في هارلم التي تعج بالفقراء ، سود جهلاء يعانون من كل الأمراض التي باستطاعة الإسلام أن يعالجها ومع ذلك لا يقف اثنان أو ثلاثة حينما أطلب من المستمعين الذين يودون الانضمام لدعوة الايجا محمد أن يقفوا على أرجلهم . وأحياناً لم نكن نجد حتى ذلك الرقم .

ما أزعجني هو أنني يفترض فيَّ معرفتي بالشوارع ، لذلك كان عليَّ أن أفكر في حل . أحد أسباب المشكلة كان وجود جماعات كثيرة تعبر عن صوت الرجل الأسود في كل ركن من هارلم . كانت هناك جماعات وطنية مثل من يدعون إلى «الشراء من السود فقط » وخطباؤهم في كل ركن وخطباء من جماعات أخرى . وبالرغم من أنني لست ضد من يشجع الرجل الأسود على الاستقلال إلا أنهم بتلك الطريقة كانوا يجعلون من الصعب على مستر محمد أن يصل الجماهير .

للتغلب على هذه المشكلة بدأنا بطبع بعض المنشورات التي نقف ونوزعها في كل أركان هارلم المزدحمة أنا ومعي خمسة أو ستة من الأخوان . كنا نقفز أمام كل أسود يتمشى ونمد له المنشور وإذا رفض أخذه أو تردد في ذلك كنا ننادي عليه بجملة مثل : « اسمع وأقرأ كيف اختطف الرجل الأبيض عنصرنا الأسود. »

بعد ذلك كنا نذهب « للصيد » في تلك الأركان المزدحمة وبالقرب من اجتماعات الجماعات الوطنية . في الوقت الحالي أصبحت تلك الطريقة أكثر اتقاناً ولكنها أساساً تعني أن نركز على من يقفون في الأطراف بين من جذبتهم الجماعات الوطنية إذ أنهم عادة مترددون بين البقاء والذهاب وعلى استعداد لقبول فكرة جديدة . ذلك بالإضافة إلى أنهم يهتمون ويتابعون موضوع ثورة الرجل الأسود . بدأنا نحقق نتائج إيجابية بسرعة بعد أن أصبحنا نوزع المنشورات وتدعو الناس

للحضور قائلين لهم أن صاحب الشرف الرفيع إلايْجا محمد لديه العلاج لكل علل الرجل الأسود السياسية والروحية والعقلية والأخلاقية والاقتصادية .

بدأنا نرى وجوهاً جديدة في كل اجتماع ثم اكتشفنا أن أحسن جمهور « للصيد » على الإطلاق وأكثرهم تهيئاً لقبول تعاليم مستر محمد هو جمهور الكنائس المسيحية . كنا نبدأ الوعظ والصلاة يوم الأحد الساعة الثانية ظهراً وفي كل هارلم كانت الصلوات في الكنائس تنتهي قبل ساعة من ذلك ويبدأ الناس في الانصراف . لم نكن لنذهب إلى الكنائس الكبرى التي غالباً ما يؤمها من يسمون بالطبقة الوسطى الذين يهتمون بالمظاهر والمركز الاجتماعي لأنهم لم يكونوا ليأتوا إلى معابد هي مجرد واجهات متاجر قديمة مثل معابدنا .

صرنا نذهب أمام الكنائس المتواضعة وننتظر روادها من المصلين عندما يخرجون ونبدأ الصيد بهمة ونشاط وسط الثلاثين إلى الخمسين شخصاً من بينهم . « تعال واسمع أيها الأخ وأيتها الأخت » « إنك لم تسمع شيئاً حتى تسمع تعاليم صاحب الشرف الرفيع إلايْجا محمد. » كان المصلون عادة يتكونون من مهاجرين جنوبيين كبار السن ومن النوع الذي لديه استعداد لأن يذهب إلى أي مكان ليستمع إلى ما يسمونه « أداء وعظياً جيداً ». وكانت تلك الكنائس المتواضعة من النوع الذي يضع إعلانات الفراخ المشوي والنقانق في الخارج بغرض جمع التبرعات من بيعها . كذلك كان كهنتها يتدربون على الخطابة أربع أو ثلاث ليال في الأسبوع استعداداً ليوم الأحد حيث يصرخون وينشدون ويتغنون على صوت القيثار والرق .

لا أدري إن كنت تعرف أم لا ولكن هنالك مجموعة كبيرة من الفنانين الذين يحترفون ترتيل المختارات الإنجيلية (الجوسبيل) تخرجوا من مثل هذه الكنائس في المدن الصغيرة أو في ريف الجنوب . فنانات مثل الأخت روزيتا ظارب ومجموعة كلارا وارد وربما المئات الأخرى من غير المعروفين . ماهاليا جاكسون ، أعظمهم على الإطلاق ، كانت ابنة واعظ في لويزيانا . حضرت من هناك إلى شيكاجو وبدأت تعمل كخادمة في منازل البيض ثم في مصنع وفي غضون ذلك تغني مختارات من الإنجيل في كنائس الزنوج حتى ذاعت شهرتها وبذلك أصبحت أول زنجية يشهرها الزنوج . كانت اسطواناتها تباع بمئات الألوف بين الزنوج قبل أن يعرف البيض من هي ماهاليا جاكسون . أذكر أنني قرأت مرة أن الأخت ماهاليا قالت أنها كانت كلما وجدت الفرصة تختلسها وتذهب متخفية لتغني مع بني جنسها في كنائس الجيتو الأسود . وكانت تسمي ذلك محطة زادها .

الزنوج المسيحيون الذين كنا « نصطادهم » كانوا مهيئين للصدمة التي كنت أفاجئهم بها عندما أحدثهم عما يجري لهم بينما هم يعبدون إلهاً أشقر ذا عيون زرقاء . آه

لو استطعت الوصول إليهم لكنت أذن ملأت بهم معابدنا . كنت أفصل خطبتي على مقاسهم وأبدأ الحديث والعاطفة تجيش بي أحياناً لدرجة أنني كنت أضطر لتوضيح السبب لهم :

« أترون دموعي أيها الأخوة والأخوات . لم تدمع عيناي منذ أن كنت طفلاً . أنني لا أتمالك نفسي من ثقل المسئولية الملقاة على عاتقي لأوضح لكم للمرة الأولى ما فعلته بنا ديانة الرجل الأبيض التي نسميها المسيحية .

« أيها الأخوة والأخوات أرجو ألا يصدمكم هذا . أعلم أنكم لم تتوقعوا مثل هذا الحديث. لم يفكر أحد منا من قبل في ذلك ، أيها الأخوة والأخوات ، أنه ربما تكون هنالك ديانة خاصة بنا ، ديانة خاصة بالرجل الأسود . إننا نخطىء إذ لم نسأل أنفسنا هذا السؤال .

« نعم هناك دين خاص بنا اسمه الإسلام . دعوني أتهجاها لكم إ – س – ل – ا – م ! الإسلام ! سأحدثكم عنه بعد قليل ولكن علينا قبل ذلك أن نفهم بعض الأمور عن هذه المسيحية قبل أن ندرك أن حل مشكلتنا يقبع في قبولنا للإسلام .

« أيها الأخوة والأخوات : لقد علمنا الرجل الأبيض أن نتطلع إلى يسوع أشقر الشعر ، أزرق العينين . إننا نعبد يسوعاً لا يشبهنا في شيء . نعم ! نعم أخوتي . صبراً ! استمعوا إلى تعاليم مبعوث الله . استمعوا إلى إلايْجا محمد صاحب الشرف الرفيع . فكروا في ذلك . لقد علمنا الرجل الأبيض أن نعبد إلها أبيض . أن نصرخ ونغني ونصلي حتى الموت لتتحقق أحلامنا في جنة آخرة عندما نكون موتى بينما هذا الرجل الأبيض يلعق العسل واللبن في جنة شوارعها مرصوفة بالدولارات الذهبية هنا في هذا العالم !

« لا أخالكم إخوتي وأخواتي تودون تصديق ما أقول ولكني أقول لكم أخرجوا وتمعنوا فيما حولكم . تمعنوا في طريقة حياتكم وحياة من تعرفون وبذلك تدركون أنكم لستم وحدكم في ذلك . وبعد أن تتمعنوا في أحيائكم وأماكن سكنكم أنظروا في الجانب الآخر . أنظروا خلف حديقة سنترال بارك لتروا ما جلبه الإله الأبيض للرجل الأبيض . لا تقفوا عند ذلك ولا أعتقد أنكم ستتمكنون من الوقوف طويلاً فالحرس سينهركم « ابعدوا! » اركب مترو الأنفاق واذهب إلى وسط البلد وانزل في أي محطة تشاء وانظر إلى الشقق السكنية والعمارات . تقدم حتى تصل طرف جزيرة مانهاتن (نيويورك) التي سرقها الرجل الأبيض من الهنود الحمر الطيبين مقابل أربعة وعشرين دولاراً . انظر مبنى البلدية وشارع وول ستريت . ثم انظر إلى نفسك وإلى إلهه ! ».

تعلمت منذ عهد مبكر أهمية الخطابة بلغة يفهمها الناس وعندما وجدت أن غالبية المصلين في الكنائس المتواضعة التي كنا نصطاد منها كانوا نساءً ، أي على العكس من المستمعين في ندوات الوطنيين ، رأيت أن أقدم لهن شيئاً خاصًّا بهن . « أيتها النساء السود المليحات ! يعلمنا صاحب الشرف الرفيع أن الرجل الأسود لن يجد الاحترام الذي يسعى إليه إلا إذا احترم نساءه أولاً . أن على الرجل الأسود أن ينهض وينفض عن نفسه رداء الضعف الذي فرضه عليه المستعبد الأبيض . عليه أن يبدأ من اليوم في إيواء وحماية واحترام نسائه السود».

وعندما أصل إلى « كم منكم يصدق ما قلناه ؟ » ، كان الكل يقف إلا أن العدد الذي يقف عندما أنادي : « من كان يريد إتباع إلايْجا محمد صاحب الشرف الرفيع فليقف على قدميه » كان ما زال قليلاً .

كنت أعلم أن متطلباتنا السلوكية الصارمة هي أكثر ما ينفرهم ولذلك أصبحت أثير موضوعها في خطبي .

« الرجل الأبيض يريد لأخلاقنا الانحطاط ويريد لنا الجهل والقذارة . وطالما نحن على هذه الحال سنستمر نتسول عنده وسيستمر يتحكم فينا . أننا لن نحقق الحرية والعدل والمساواة حتى نبدأ في القيام بأمر أنفسنا.» كنا عادة نقوم بتوضيح المحرمات والمحللات عندنا لكل من يبدي أقل ميل للانضمام لنا . بدأ اسمنا في الانتشار في تلك الكنائس المتواضعة وبدأ الناس يحضرون للاستماع إلى خطبي لكنهم لا ينضمون وذلك في رأيي أساساً بسبب قواعد السلوك الصارمة عندنا . كان الزنا عند أمة الإسلام حراماً مطلقاً كذلك كان أكل لحم الخنزير الدنس وأي مواد ضارة بالجسم مثل الخمر والتبغ والمخدرات . كان محرماً على أتباع الايجا محمد الرقص ، والقمار ، والخروج مع الفتيات وزيارة السينمات أو المباريات الرياضية والتغيب عن العمل . كذلك ممنوع الشجار أو الإساءة إلى أحد خاصة إلى النساء . حرم علينا أيضاً الكذب والسرقة وعدم إطاعة السلطات إلا فيما يخالف الدين .

كان يقوم بمراقبة وتنفيذ قواعد السلوك جماعة ثمار الإسلام وهم شبان مسلمون قادرون متدربون ومخلصون . كان مستر محمد يعلق عضوية من يخالف هذه القواعد أو يأمر الناس بهجره لمدة أو الطرد «من الجماعة الوحيدة التي يعنيها أمرك » إذا كانت المخالفة كبيرة.

مع كل اجتماع كان أعضاء المعبد رقم ٧ يزيدون إلا أن سرعة نموه كانت أبطأ مما أود . كنت أسافر كثيراً في أثناء الأسبوع بالحافلة وبالقطار . وكنت أدرِّس في المعبد رقم ١٢ في فيلادلفيا أيام الأربعاء من كل أسبوع . كذلك ذهبت إلى مدينة

سبرنغفيلد في ولاية ماساتشوستس لكي أنشئ معبداً هنالك ، معبداً أعطاه إلايجا محمد الرقم ١٣ وقد ساعد في تأسيسه الأخ اوزبورن الذي سمع عن الإسلام لأول مرة مني في السجن . كذلك طلبت مني سيدة استمعت إليَّ في سبرنغفيلد أن أحضر إلى هارتفورد حيث تقيم وحددت لي يوم الخميس التالي كما وعدت بأنها ستدعو الأصدقاء فما كان مني إلا أن أذهب إلى هارتفورد في ذلك الميعاد .

أيام الخميس هي عادة عطلة لخدم المنازل وكانت الداعية تسكن في أحدى عمارات المباني الشعبية الحكومية حيث يسكن معها في نفس العمارات حوالي خمسين من خدم المنازل والطباخين والسائقين وآخرون يعملون في بيوت البيض في منطقة هارتفورد . وكما يقولون « الملازم الخصوصي يعرف نقطة ضعف سيده » فالسود الذين يعملون في بيت الرجل الأبيض كانوا يستجيبون لنا بسرعة أكثر من الآخرين . كما أنهم اصطادوا لنا عدداً آخر من بينهم ولم يمض وقت طويل قبل أن ننشئ معبداً أعطاه مستر محمد الرقم ١٤ . كنت أذهب إلى هنالك كل خميس لإعطاء بعض الدروس .

كنت كلما زرت شيكاجو يقوم مستر محمد بتوبيخي حول نقطة ما في كل زيارة . وكنت دائماً أؤكد له أنه طالما تسلح تلاميذه بتعاليمه فستنمو الدعوة وتزدهر بدرجة أسرع . كان صبره وحكمته في توبيخي يجعلاني أشعر بالتواضع من رأسي إلى أخمص قدمي . قال لي ذات مرة أن القائد الحق لا يكلف قومه أكثر من طاقتهم وأنه لا يسأل الناس إلا وسعهم .

« كثير من الناس يعتقدون وهم يرون شخصاً يقود سيارته ببطء ، أن ذلك الشخص لا يرغب في السرعة » ، هكذا بدأ مستر محمد كلامه معي ، «ولكن ذلك الشخص يعلم أن القيادة بسرعة ستضر بسيارته لقدم تلك السيارة . لكنه حينما يتحصل على سيارة جديدة سيبدأ في الإسراع.» أذكر أنه قال لي مرة أخرى حينما تذمرت من عدم كفاءة أحد أئمته « خير لي أن يكون لدي بغل أستطيع الاعتماد عليه من أن يكون لي فرس جموح ».

كنت أدرك أن مستر محمد يبغي تلك السيارة السريعة ولا أعتقد أنك ستجد في أمة الإسلام في أمريكا مجموعة من الإخوة والأخوات كانت تقوم « بالصيد » مثل تلك المجموعة وفي مثل إخلاصها ونشاطها وهي تعمل في بوسطن وفيلادلفيا وسبرنغفليد وهارتفورد ونيويورك . ذكرت هذه المجموعة لأنني عرفتها عن قرب . كان ذلك في عام ١٩٥٥ العام الذي قمت فيه بأول رحلة طويلة . ذهبت لافتتاح المعبد رقم ١٥ في أطلانطا بولاية جورجيا . على كل مسلم ينتقل إلى بلدة غير بلدته أن يبذر بذور دعوة مستر محمد وكان أن انتقل الأخ جيمس إكس من المعبد رقم ١٢ إلى هنالك

ونجح في تجنيد عدد من الأخوة وعندما علم مستر محمد بذلك طلب مني أن أسافر وأعقد أول اجتماع للمجموعة . لقد كانت لي يد في انتشار معظم معابد مستر محمد إلا أنني لن أنسى افتتاح معبد مدينة أطلانطا .

المكان الوحيد الذي تمكن الأخ جيمس اكس من تأجيره كان قاعة حانوتي إذ أن جماعتنا كانت في تلك الأيام تعيش على الكفاف . عندما وصلنا وجدنا جموع جنازة زنجي مسيحي وهي تنصرف فانتظرنا ووقفنا نراقب المعزين ينصرفون .

بدأت موعظتي مشيراً إلى ذلك . « لقد رأيتموهم يبكون على من مات منهم جسدياً . ولكننا في أمة الإسلام نفرح بكم أيها الميتون عقلياً . سيصدمكم ذلك ولكنكم لا تعلمون أن كل الجنس الأسود في أمريكا ميت عقلياً . أننا نجتمع اليوم لنسمع تعاليم مستر محمد التي ستنتشل الرجل الأسود من الموت العقلي ».

بهذه المناسبة أقول إننا كنا دائماً ننجح في تجنيد مسلمين جدد من بين أقارب المسلم المتوفى الذين يحضرون طقوس جنازته القصيرة التي علمنا لها مستر محمد . «إن المسيحيين يقيمون جنائز للأحياء ولكننا نقيمها لمن يغادرون هذا العالم. » وبصفتي منستر مسئولاً عن عدة معابد كان عليَّ أن أقود طقوس الجنازة لمن يموت منا وكما علمني مستر محمد كنت أبدأ بالدعاء له فوق الكفن ثم أقرأ موجزاً لسيرة الميت الشخصية ثم أقرأ من سيرة أيوب قطعتين من الفصل السابع والرابع عشر اللذين يتحدث فيهما أيوب عن الحياة الآخرة ثم أقرأ من الفصل الذي يقول فيه داود عندما مات ابنه ألا حياة بعد الموت .

كنت أيضاً أشرح لهم لماذا لا ينبغي أن نبكي عليه أو نحمل الزهور إلى الميت أو نغني ونعزف الموسيقى . « لقد بكينا من أجله في حياته ، فليست هنالك حاجة لذلك الآن إذ أنه لن يحس بنا». بعد ذلك تقوم أخوات محددات بتمرير أطباق عليها قطع من حلوى النعناع يأخذ منها كل واحد من الحضور واحدة وبإشارة مني يضعونها في أفواههم . « نصطف الآن لنلقي النظرة الأخيرة على أخينا . لن نبكي مثلما لا نبكي على قطعة النعناع وكما تذوب حلاوتها في أفواهنا كذلك تذوب حلاوة أخينا التي استمتعنا بها في حياته لتبقى حلوة في قلوبنا ».

علمت من أكثر من مائتي مسلم أن أول شيء وجههم نحو الله كان حضور مراسيم جنازة أحد المسلمين إلا أنني علمت بعد ذلك أن تعاليم مستر محمد عن الموت وشعائر الجنازة التي يتبعها تتناقضان تماماً مع تعاليم وشعائر الإسلام الحقة .

وجدتنا سنة ١٩٥٦ وقد نمونا وزاد عددنا وأصبح معتبراً . لقد اصطادت مجموعة كل معبد عدداً كافياً لدرجة أن عدد المسلمين خاصة في المدن مثل نيويورك ، وشيكاجو وديترويت ، أصبح أكبر مما يتخيل أي شخص وكما تعلم فبالإمكان

أن يكون لديك منظمة كبيرة ولكن لأنها لا تقوم بجلبة أو استعراض ، لا يشعر بها الناس . ولم تكن زيادة عددية فقط بل بدأت النوعية تتغير . بدأ ينضم إلينا بعض المتعلمين والمهنيين والفنيين مما جعلنا نقترب من هدفنا بالحصول على السيارة السريعة لمستر محمد . انضم إلينا على سبيل المثال موظفو دولة ، ممرضات ، كتبة ، باعة في المحلات الكبرى وكان أجمل شيء هو تحول بعض هؤلاء الأخوة إلى وظيفة منستر متحمس ومتحفز ومقتدر من أجل مستر محمد .

لم أكن أنام إلا قليلاً حتى أستحق ثقته المتزايدة فيَّ واعتماده المتزايد عليَّ في بناء أمة الإسلام . وفي عام ١٩٥٦ أمر مستر محمد أسرة المعبد رقم ٧ بأن تشتري وتخصص لي عربة شفروليه جديدة . (كانت العربة ملك للأمة وليست ملكي فكل ما أملكه أنا لا يتعدى ملابسي ، ساعة يد وحقيبة وكانت المنظمة تدفع لي تكاليف معيشتي مع بعض مصاريف الجيب مثلي في ذلك مثل كل منستر في الجماعة . لم أعد أهتم بالمال علماً بأنني في السابق كنت على استعداد للقيام بأي شيء من أجل المال.) قال لي مستر محمد وهو يحدثني عن العربة أنه يعلم بحبي للترحال وبذر البذور الإسلامية في كل مكان ولذا فهو لا يريد لي أن أكون مقيد الحركة بدون عربة .

في مدى خمسة أشهر قطعت ثلاثين ألف ميل وأنا أصطاد بتلك العربة قبل أن يحدث لي حادث . كنا ، أنا وأحد الأخوان ، نمر بمدينة وذرفيلد بولاية كانتيكات في ساعة متأخرة من الليل ووقفنا عند الإشارة الحمراء حينما صدمتنا عربة من الخلف . لم يصب أي منا بأذى ولكن سائق العربية الأخرى كانت معه امرأة أخفت وجهها فتأكدت أنها ليست زوجته . كنا نتبادل بطاقات الهوية (عرفت منها أنه من سكان ميردين ، كانتيكات) حينما حضرت الشرطة وشعرت من اهتمامهم أنه شخص ذو أهمية وعرفت بعد ذلك أنه كان واحداً من أهم السياسيين في ولاية كانتيكات لكني لن أبوح باسمه . المهم في الأمر أن أسرة المعبد رقم ٧ قبلت التعويض الذي نصح محام بقبوله فاشترينا به عربة أولدزموبيل من نفس النوع الذي مازالت أقوده إلى اليوم .

كنت دائماً حريصاً على ألا تكون لي علاقة أو ما يفسر كذلك بأي من المسلمات الأخوات . كان ولائي والتزامي بالإسلام يمنعني من أي التزام آخر خاصة المرأة . وفي أكثر من مرة في أكثر من معبد كانت أخت أو أخرى تلمح لي بأني في حاجة إلى زوجة ولذلك كنت دائماً أوضح لهن ألا رغبة لي في الزواج على الإطلاق فمشغولياتي لا تسمح بذلك .

كنت في كل شهر أذهب إلى شيكاجو أجد أن أحدى الأخوات كتبت إلى

مستر محمد تشتكي أنني لا أنصف النساء عندما أتكلم عن طبيعة الجنسين في دروسي . كانت تعاليمنا تقول أن طبيعة الرجل هي القوة وطبيعة المرأة هي الضعف وأنه كما على الرجل احترامها عليه أن يمسك بقيادها إذا أراد لها أن تحترمه .

ولكن كانت لي أسبابي الخاصة في تلك الأيام . لم أكن أعتقد أن بإمكاني أن أحب امرأة بعد كل الذي رأيت وشاهدت بنات حواء يفعلنه من الخداع والكذب والنفاق . لقد رأيت رجالاً كثيرين حطمت المرأة حياتهم أو قيدتهم في طموحهم أو عقدت حياتهم . النساء يكثرن من الكلام ومنعهن من الكلام الكثير مثل منع جيسي جيمي (الكاوبوي) من أن يحمل السلاح أو منع دجاجة من الصياح . هل هنالك دجاجة يمكن منعها من القوقأة ؟ وهل يمكنك تخيل جيسي جيمس بدون بندقية ؟ وبالنسبة لشخص يحتل منصباً قيادياً مثلي ، الزواج بامرأة غير مناسبة أكبر خطأ . حتى شمسون أقوى رجل في العالم ، حطمته المرأة التي كانت تنام على حضنه وأكثر ما ساءه كان كلماتها .

ما أود أن أقوله أنني خبرت النساء بما فيه الكفاية وحادثت الكثير من العاهرات والعشيقات وكن يعرفن عن الأزواج أكثر مما تعرفه عنهم زوجاتهم . كانت الزوجات دوماً يشكين من أزواجهن إلى درجة أن الأزواج وجدوا ألا أحد على استعداد ليسمع شكواهم ألا العاهرات . كن يعتنين بهم ويقمن على راحتهم وينصتن لهم وهم يفضفضون ما بداخلهم .

المهم أنه مضت عليَّ عشر سنوات ولم أفكر بامرأة ووضعي الجديد كمنستر جعلني أفكر أقل مما سبق في الزوجة كما أن مستر محمد كان يشجعني على أن أبقى عازباً . كانت الأخوات في المعبد رقم سبعة يغظن الأخوة قائلات لهم « أنكم باقون عازبون لأن الأخ منستر مالكوم لا يهتم بالنساء». أنا شخصيًّا لم أخف عدم اهتمامي بالنساء كما أنني كنت أنصح الأخوان بالحذر منهن .

هنالك أخت كانت انضمت لتوها لمعبدنا في عام ١٩٥٦ وكنت قد بدأت ألاحظها بدون أية أفكار أو اهتمام خاص واستمر ذلك لمدة عام . لم تكن لتعلم أنني أفكر بها وقد تظن أنني لا أعرف اسمها حتى . كان اسمها الأخت بتي إكس . كانت طويلة ، سمراء ، لونها أغمق من لوني وعيونها عسلية . وكنت أعرف أنها من ديترويت وأنها درست التربية في كلية طسكيجي في ولاية الاباما . كانت تدرس التمريض في أحد كليات التمريض الكبرى في مدينة نيويورك كما أنها تحاضر الأخوات المسلمات عن الصحة والنظافة .

قبل أن أستمر دعني أوضح لكم أنه كان هنالك نشاط مسائي كل يوم بالمعبد . في مساء الاثنين يتدرب شباب ثمار الإسلام تدريباً ليس عسكريا فحسب بل يشمل

محاضرات ونقاشاً عن الرجولة الحقة وأشياء أخرى مثل مسئولية الزوج والأب ، ماذا تتوقع من المرأة ، حقوق النساء التي على الرجال احترامها ، أهمية دور الأب في البيت ، الأحداث الراهنة ، أهمية الأمانة والطهارة وأهمية البيت والمجتمع والأمة والحضارة ، لماذا علينا أن نستحم مرة كل أربع وعشرين ساعة على الأقل ، مبادئ إدارة الأعمال إلخ .....

مساء الثلاثاء كان ليلة الوحدة في كل معبد حيث يجتمع الأخوة والأخوات للتعارف والحديث مع بعضهم البعض وتناول المرطبات والحلويات . في أمسيات الأربعاء في الثامنة ينعقد ما يسمى انخراط الطلاب حيث تناقش المواضيع المهمة في الإسلام أي ما يعادل التعلم بالسؤال في الكاثوليكية . في مساء الخميس من كل أسبوع يعقد ما يسمى بتدريب الفتيات المسلمات (ت. ف. م.) وصف الحضارة العامة (ص. ح. ع .) حيث تتدرب الفتيات والنساء على التدبير المنزلي مثل رعاية الأطفال والاهتمام بالأزواج ، الطباخة والحياكة والسلوك الحميد داخل وخارج البيت وكل الأشياء التي ينبغي على الأخت المسلمة والأم المسلمة والزوجة المسلمة معرفتها .

مساء الجمعة كان مخصصاً لما يسمى ليلة المدنية حيث تعقد فصول لكل الأخوة والأخوات في مجال العلاقات الأسرية تؤكد على أهمية معرفة واحترام الزوج والزوجة لطبيعة كل منهم الحقة . أمسيات السبت كانت أمسيات حرة متروكة لفعل ما يشاءون وغالباً يتزاورون مع بعضهم فيها . وأيام الأحد طبعاً كانت أيام الصلاة في المعبد .

كنت أحياناً أذهب في أيام الخميس ، أيام تدريب الفتيات المسلمات وفصل الحضارة العامة ، وأمر على بعض الفصول وربما مررت على فصل الأخت بتي اكس مثلما كنت أمر على بعض الفصول الأخرى في باقي ليالي الأسبوع . في البداية كنت أسألها عن أشياء مثل سير تعليم الفتيات وكانت ترد قائلة : « حسن أيها الأخ المنستر » فأرد : « شكراً ، أيتها الأخت » ، وذلك كل ما في الأمر . بعد مدة أصبحت أتبادل معها بعض الحديث القصير تهذباً . في أحد المرات رأيت أنه قد يكون من المفيد لفصولها لو أخذتها إلى متحف التاريخ الطبيعي . أردت أن أريها بعض الصور عن شجرة التطور لتساعدها في محاضراتها . كنت سأريها الدليل على صحة تعاليم مستر محمد وعن كيف أن الحلوف القذر مجرد حيوان قارض كبير وأنه هجين بين الجرذ والقط والكلب كما علمنا مستر محمد . ذكرت ذلك للأخت بتي اكس ووضحت لها أن ذلك سيكون لمساعدتها في التحضير لمادتها فقط . حتى أنا أقنعت نفسي بذلك .

عندما حل موعد الزيارة اتصلت بها هاتفياً وأخبرتها بأنني مضطر لإلغاء الميعاد لأمر هام . ردت قائلة : « لقد انتظرت طويلاً قبل أن تخبرني بذلك . لقد كنت في

طريقي إلى الخارج ، أيها الأخ المنستر». أجبتها معتذراً وقلت لها أننا سنذهب على أية حال ولكننا لن نقضي وقتاً طويلاً . ونحن هناك سألتها بعفوية عن عدة أشياء لأنني كنت أود أن أعرف طريقة تفكيرها . كنت نصف منبهر بذكائها وثقافتها إذ أنها كانت من قلائل المتعلمين الذين انضموا إلى الدعوة .

بعد ذلك اليوم مباشرة اتصلت بي أحد الأخوات وأسرت إليَّ عن مشكلة خاصة تعترض الأخت بتي اكس . اندهشت لأن الأخت بتي لم تخبرني عندما سنحت لها الفرصة . كان كل شاب مسلم يحكي للمنستر عن رفض أبويه له لاختياره الإسلام . وعندما أخبرت الأخت بتي اكس أبويها بالتربية أنها صارت مسلمة تركوها بين خيارين : إما أن تترك المسلمين أو يوقفوا تمويل تعليمها في مدرسة التمريض .

كانت قد قاربت إكمال فترتها الدراسية ولكنها تمسكت بالإسلام ولذا بدأت تعمل في دار حضانة لأطفال الأطباء الذين يسكنون في المستشفى الذي تتدرب فيه . من جانبي ما كنت لأقوم بأي تحرك إلا إذا تأكدت من أثره على تنظيم أمة الإسلام ككل . بدأت أقلب الأمر في ذهني . ماذا سيحدث إذا فكرت في الزواج من شخص ما ؟ كالأخت بتي إكس مثلاً أو أية أخت أخرى ، في أي معبد ، إلا أن الأخت بتي إكس مثلاً ستكون ملائمة من حيث الطول والعمر خاصة مع طولي . لقد علمنا مستر إلايْجا محمد أن زواج الرجل الطويل بامرأة جد قصيرة أو العكس سيكون أمراً شاذًّا وغير متناسق كما علمنا أن العمر المثالي للزواج هو أن يكون عمر الزوجة نصف عمر الرجل زائداً سبعة أعوام . علمنا مستر محمد أيضاً أن الفتيات يسبقن الصبيان في النضج الجسدي وأن الزواج لن ينجح إذا لم تنظر المرأة لزوجها باحترام وأن الرجل يجب أن يفوق المرأة في كل شيء إذا كان لها أن تجد الأمان النفسي عنده .

تعجبت من نفسي حينما وجدت نفسي أفكر بتلك الطريقة وصرت أمنع نفسي من الذهاب ناحيتها أو أي مكان أعلم أنها ستكون فيه . كنت أخرج من مطعم المسلمين إذا أتته وأنا داخله وكنت مسرورا أنها لم تكن لديها أدنى فكرة عما يجول بخاطري . كما أن عدم حديثي معها لن يعطيها فكرة عما في ذهني لأننا لم يحدث أن تحدثنا حديثا شخصيا حتى لو فكرت هي في ذلك .

فكرت فيما سيحدث لو قلت لها شيئا وماذا سيكون موقفها ؟ قررت أنني لن أعطيها الفرصة لترفضني فلقد سمعت ما فيه الكفاية عن فتيات يتفاخرن: « لقد قلت للمغفل أغرب عن وجهي ».

علمتني تجاربي أن أكون حذراً .

سررت حينما علمت أن عدد أقاربها قليل لأنني كنت أري الأنسباء عقارب وقد

شاهدت كثيراً من الزيجات بين مسلمي المعبد رقم سبعة تتحطم بسبب الأنسباء الذين يكرهون المسلمين عادة أكثر من أي سبب أخر .

لم أكن أنوي أن أغمرها بذلك الحديث الرومانسي مثل ما يحدث في أفلام هوليود والتلفاز الذي ملأوا به أذهان النساء . وإذا كنت سأقول شيئاً فسيكون ذلك بطريقة مباشرة وكل شيء فعلته في حياتي قمت به بطريقتي الخاصة ولأنني شئت ذلك وليس لأنني رأيت شخصاً يفعل ذلك أو لأنني قرأت عنه أو رأيته في السينما في مكان ما .

أخبرت مستر محمد عندما زرته في شيكاجو في ذات الشهر أنني أفكر باتخاذ خطوة كبيرة فأبتسم عندما أخبرته بما أنوي . أخبرته أنني أفكر في ذلك فقط مجرد تفكير وطلب أن يقابل الأخت المقصودة . ومن حسن الحظ أن الجماعة كانت في ذلك الوقت قادرة مالياً على تنظيم دروس خاصة في المعبد الرئيسي في شيكاجو للأخوات المعلمات حيث يدرسن ويتمكن من مقابلة صاحب الشرف الرفيع شخصيا . لذلك لم يراود الأخت بتي إكس أدني شك عن السبب في دعوتها لتنضم إلي المجموعة الذاهبة إلى الدراسة في شيكاجو ومثلها مثل بقية الأخوات المشتركات في البرنامج نزلت ضيفة في منزل مستر محمد وزوجته الأخت كلارا محمد .

أفادني مستر محمد بعد ذلك أنه يري في الأخت بتي إكس فتاة ممتازة .

إذا كنت تفكر في عمل شيء ما فخير لك أن تحسم الأمر إذا كنت ستقوم به أم لا . لذلك وفي مساء أحد أيام الآحاد بعد نهاية الاجتماع في المعبد ركبت عربتي في طريق الولاية الخضراء (نيوجيرسي) متجهاً إلى ديترويت لزيارة أخي ولفرد . كان ولفرد قد أصبح منستر لمعبد ديترويت في العام السابق أي في عام ١٩٥٧ ولم أكن قد رأيته أو أي فرد من أسرتي منذ مدة طويلة . دخلت ديترويت في حوالي العاشرة صباحاً ووقفت عند محطة بترول ثم اتصلت هاتفياً بالأخت بتي إكس . اضطررت أن أتصل باستعلامات دليل الهاتف أولاً لأحصل علي رقم هاتف بيت الممرضات في المستشفي الذي تعمل فيه لأنني كنت عمداً رفضت تذكر رقمها . وأخيراً حصلت علي رقمها وأجابت : « نعم هالو . الأخ منستر . » دخلت مباشرة في الموضوع : « انظري . هل تودين الزواج ؟ ».

من الطبيعي أن بدا في صوتها الاندهاش والصدمة . وكلما أفكر في هذا الموضوع حتى اليوم أؤمن بأنها كانت تتصنع الدهشة لأن للنساء حاسة وحدساً . قالت ما توقعت « نعم » فقلت حسناً ليس لدي الوقت الكثير وعليها أن تركب أول طائرة

إلى ديترويت . وصلت فعلاً في أول طائرة وذهبت وقابلت أبويها بالتربية اللذين كانا قد تصالحا معها . كانا ودودين وقد فاجأتهم الأخبار السارة أو علي الأقل ذلك ما بدا لي . بعد ذلك أخذت الأخت بتي إكس إلى منزل أخي الأكبر ولفرد وقدمتها له وقد كنت سألته من قبل عن أسرع مكان يمكن أن يتزوج فيه الإنسان بدون انتظار أو تعقيدات إجرائية فقال في ولاية انديانا .

في صباح اليوم التالي ذهبت مبكراً إلى منزل والديها وأخذت بتي ثم ركبنا السيارة إلى ولاية أنديانا أولا . وجدنا القانون قد تغير منذ أيام قليلة وأصبحت مدة الانتظار طويلة . كان ذلك في يوم الثلاثاء الرابع عشر من يناير عام ١٩٥٨ . لم نكن بعيدين عن مدينة لانسنج حيث يسكن أخي فلبرت فقدت العربة إلي هنالك . كان فلبرت في العمل حينما وقفنا عند منزله فقدمت بتي إكس إلى زوجة فلبرت وتركتهما تتبادلان الحديث واتصلت هاتفياً بالسلطات المختصة فوجدت أنه يمكننا الزواج في يوم واحد إذا تحركنا رأساً . قمنا بإجراء الفحوصات الطبية اللازمة ثم ملأنا الاستمارة وكتبت في مكان الديانة « مسلم » ثم ذهبنا إلى مكتب القاضي المختص . وجدناه رجل ابيض احدب الظهر فقام بأداء مراسيم الزواج . كل شهود الزواج كانوا من البيض وفي الوقفات التي سئلنا فيها أثناء المراسم أجبنا بنعم في الأماكن المفروضة . كانوا كلهم وقوفاً يبتسمون ويتفرجون علينا إلى أن قال الشيطان العجوز : «بهذا أشهركم كزوج وزوجته . والآن يمكنك أن تقبل العروس ».

خرجنا من ذلك المكان وفي ذهني خزعبلات هوليود حيث تنتظر العروس من العريس أن يحملها علي ذراعية ويقفز من فوق عتبة الدار بينما بعضهن أثقل وزناً من العريس . كم من زواج تحطم بسبب الأفلام والتلفاز اللذين تدمنهن النساء حيث يتوقعن من أزواجهن باقات الزهور والقبلات والأحضان والمطاعم الفاخرة والمراقص الزاهية وكل أحلام سندريللا ثم بعد ذلك يستأن حينما يعود الزوج المسكين الهزيل مرهقاً من العمل متوقعاً طعاماً يكفي أوده بعد أن كد كالكلاب طول اليوم .

تناولنا طعام العشاء في منزل فلبرت في لانسنج وقلت له عندما دخل « عندي لك مفاجأة.» رد علي بقوله : «لا لم تفاجئني». وأخبرني أنه عندما عاد وعلم أنني قدمت لهم أختاً مسلمة تأكد أنني تزوجت أو بسبيل الزواج .

كان علي بتي أن تعود إلى نيويورك رأساً لمتابعة دراستها علي أن تعود في خلال أربعة أيام. زعمت لي أنها لم تخبر أحداً من المعبد رقم سبعة أننا تزوجنا . وفي يوم الأحد في ذات الأسبوع كان مستر محمد سيحاضر في معبد ديترويت رقم واحد فاتصلت بمساعدي في نيويورك إذ أصبح لي منستر مساعد . وطلبت منه أن يأخذ مكاني في الصلاة . في يوم السبت عادت بتي وأشهر مستر محمد زواجنا بعد

محاضرته يوم الأحد . حتى في ميشجان لم تصدق الأخوات ذلك نسبة لابتعادي عن كل الأخوات .

عدنا معاً بالسيارة إلى نيويورك حيث أحدث الخبر هزة شديدة بين أعضاء المعبد رقم ٧ . نظر إليَّ بعض الإخوان الشباب وكأني خنتهم والكل فاغر فاه . كادت الأخوات أن يأكلن بتي ولن أنسى ما سمعت إحداهن تقوله لها « لقد رميته في الشرك». تلك طبيعة النساء كما أوردت قبلا فالرجل في نظرهن صيد ثمين وذلك هو السبب في أنني كنت دائما أعتقد أنها كانت تعلم ما يدور في ذهني طوال ذلك الوقت . ربما اصطادتني فعلاً .

في العامين ونصف التاليين كنا نقيم في منطقة كوينز بمدينة نيويورك نشارك الأخ جون علي وزوجته بيتاً يتكون من شقتين . حالياً يعمل الأخ علي كأمين عام للجماعة في شيكاجو . ولدت ابنتي الكبرى – أتيلا ، في نوفمبر ١٩٥٨ وقد أسميتها على أتيلا المغولي الذي دمر روما . بعد ميلادها بفترة وجيزة انتقلنا إلى البيت الذي نقيم فيه الآن والذي يتكون من سبع غرف في أحد أحياء كوينز السوداء في لونج آيلاند . كذلك ولدت قبيلة (أسميناها على قبيلة خان) في يوم عيد الميلاد عام ١٩٦٠ . ثم ولدت اليسع (الاسم العربي المقابل لالإليْجا) في يولية ١٩٦٢ وفي عام ١٩٦٤ ولدت بنتنا الرابعة أميلا .

يمكنني الآن أن أقول : إنني أحب بتي وهي المرأة الوحيدة التي فكرت في حبها كما أنها واحدة من قلائل النساء (أربعة) اللائي أثق بهن إطلاقاً. بتي امرأة مسلمة وزوجة صالحة والإسلام هو الدين الوحيد الذي يجعل الرجل والمرأة يعرفان معنى الحب الحقيقي. إذا فكرت في معنى الحب عند الغربيين ستجد أنه ليس إلا شبقاً لكن الحب الحقيقي فوق ذلك. إنه ميول وسلوك ومواقف وتفكير وأشياء تحبونها سوياً وأشياء تكرهونها سوياً. تلك هي المرأة الجميلة والزوجة الجميلة وذلك هو الجمال الذي لا يفنى. في الحضارة الغربية تفقد المرأة جاذبيتها عندما يزول جمالها الجسدي إلا أن الإسلام يعلمنا أن نبحث عن ما هو أعمق من ذلك في نظرتنا للمرأة وكذلك يُعَلِّم المرأة أن تبحث عن جمال الروح.

ذلك ما تفعله بتي ولذا فهي تفهمني. أنا شخصياً لا أظن أن هنالك سيدات كثيرات على استعداد لتحمل طريقتي في الحياة. أن العمل من أجل صحوة الرجل الأسود لينهض من غفوته وفضح الرجل الأبيض الشيطان يتطلب تفرغاً تامًّا وبتي تعي ذلك. عندما أكون بالمنزل ولدي عمل ينبغي عليَّ أن أؤديه ، توفر لي بتي الهدوء المطلوب رغم قلة وجودي بالمنزل إذ أنني لا أبقى بالبيت أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام من كل أسبوع وقد غبت مرة عن البيت لمدة خمسة أشهر. ولا أجد عادة الوقت الذي أتمكن فيه من

اصطحابها للترفيه عنها في أي مكان مع علمي أنها تحب أن تبقى بجانب زوجها. لقد اعتادت على اتصالي بها هاتفياً من المطارات ، من بوسطن إلى سانفرسيسكو ، ميامي إلى سياتل – وكما بدأ يحدث مؤخراً – من القاهرة وأكرا ومن مكة المكرمة. قالت لي مرة بالتلفون وأنا بعيد وفي لغة جميلة لا أنساها :

« إنك حاضر حتى في غيابك ».

في ما تبقى من ذلك العام وبعد زواجي من بتي كنت أرهق نفسي محاولاً أن أكون في كل مكان في نفس اللحظة لمساعدة الجماعة كي تنمو. كنت أحاضر مرة كمتحدث زائر في معبد بوسطن عندما أنهيت حديثي بالسؤال : « من منكم يود أن يتبع الإليْجا محمد صاحب الشرف الرفيع ؟ ». وفجأة والدهشة تغمرني رأيت أختي إللا من بين من وقفوا. عندنا مثل يقول أن الذين يؤمنون بعد لأي وعناد يصبحون من خير المسلمين وقد قضت إللا خمس سنوات قبل أن تقتنع.

ذكرت لك ، أيها القارئ ، أنه وفي المدن الكبيرة قد توجد منظمة كبيرة لكنها تبقى مجهولة للكثيرين إلا إذا حدث شيء يضعها تحت الأضواء ويجذب أنظار الجمهور. لم يكن أي منا في أمة الإسلام يتوقع ما حدث في هارلم ذات مساء.

بدأت القصة عندما كان اثنان من رجال الشرطة البيض يفضان شجاراً بين بعض الزنوج ويأمران المارة بالتحرك والابتعاد . كان من بين أولئك المارة أخ مسلم يدعى جونسون هينتون وأخ مسلم آخر من المعبد رقم سبعة. لم يجريا أو يهرولا كما هرول بقية الزنوج طاعة لرجال الشرطة البيض فما كان من رجل الشرطة إلا أن هاجمهما بالهراوات وجرح الأخ هنتون في رأسه ثم حضرت سيارة شرطة وأخذته. اتصل الأخ الثاني بالمطعم هاتفياً وبعد عدة محادثات هاتفية بين الأخوة تجمع قرابة الخمسين فرداً من شباب ثمار الإسلام واصطفوا في طابور أمام مركز الشرطة.

بدأ الزنوج الآخرون يتجمعون في فضول لمعرفة ما يحدث ووقفوا خلف المسلمين وعندما نظر أحد رجال الشرطة من النافذة لم يصدق عينيه. كنت داخل نقطة الشرطة بصفتي منستر للمعبد رقم سبعة وطلبت رؤية أخينا المسلم. في البداية أنكر رجال الشرطة وجوده ثم اعترفوا بذلك لكنهم لن يسمحوا لي بمقابلته فقلت لهم : إننا لن نترك المكان حتى نراه ونتأكد أنه سيجد العناية الطبية الكافية.

أصابهم الهلع من الجمع خارج النقطة وعندما دخلت ورأيت أخانا هينتون لم أتمالك نفسي من الغضب. كان الدم يغطي رأسه ووجهه وكتفيه وهو في شبه حالة إغماء. أتمنى ألا أرى مثل ذلك المنظر الذي يوضح قسوة الشرطة مرة ثانية في حياتي . أخبرت الملازم المسئول أن مكان ذلك الرجل هو المستشفى . أحضروا عربة إسعاف أخذت الأخ هينتون إلى مستشفى هارلم فتبعناه نحن المسلمين في جماعات متفرقة

لمسافة ١٥ مربعاً على طول شارع لينوكس أكثر شوارع هارلم ازدحاماً . لم ير الزنوج منظراً مثل ذلك من قبل فخرجوا من المحال والمطاعم والحانات مما زاد التجمهر كثافة.

كان الجمهور كبيراً وغاضباً خلف جماعة المسلمين أمام مستشفى هارلم . لقد فاض الكيل بسكان هارلم السود وزاد حنقهم من قسوة رجال الشرطة لكنهم لم يروا جماعة سوداء تقف مثل ذلك الموقف من قبل. تقدم نحوي أحد كبار رجال الشرطة وطلب مني تفريقهم. أخبرته أن الأخوان كانوا يقفون في هدوء وانضباط ولا يمسون أحداً بأذى . فرد عليَّ أن الذين خلفهم ليسوا منضبطين. رددت عليه بأدب أنهم ليسوا من شأني.

عندما أكد لنا الأطباء أن الأخ هنتون يلقى العناية التامة أعطيت أوامر بتفرق المسلمين. كان الزنوج الآخرون يغلون من الغضب ولكنهم تفرقوا أيضاً عندما تركنا نحن المكان. علمنا بعد ذلك أن علاج الأخ هنتون تطلب وضع قطعة من الحديد الصلب في جمجمته. (بعد العملية عاونته جماعة الإسلام أن يرفع دعوى قضائية مطالباً بالتعويض فحكم له المحلفون بمبلغ ٧٠ ألف دولار كانت أكبر تعويض يمنح في قضية عن وحشية الشرطة في تاريخ مدينة نيويورك.)

بالنسبة لملايين القراء لصحف نيويورك كانت القصة في ذلك الوقت مجرد واحدة من قصص القلاقل العنصرية التي تحدث بين حين وآخر لأن الصحف لم تشأ إبرازها. لكنني متأكد أن سلطات الشرطة رجعت ودرست ملفاتها عن جماعة الإسلام وأصبحت تنظر إلينا من منظار جديد . إلا أن أهم شيء هو أن صحيفة أمستردام نيوز ، صحيفة أكبر تجمع للزنوج في هارلم ، أعطت الحادث تغطية شاملة وجعلته على رأس الأخبار ولأول مرة أصبح كل رجل وامرأة وطفل أسود يتحدث عن « أولئك المسلمين ».

تظاهرة في شوارع بيوبورك واللافتات تقول « الله كبير » بالانجليزية